الجزء السادس
الفصل التاسع

ما كان يبدو على سلمى أثرمن آثار الحزن أو مظاهره المغرقة.. ولكن هناك في أعماقها جرح بعيد الأغوار، اذا ما خلت الى نفسها.. فتزرف في الظلام دمعا سخينا.. انها في عزلة نفسية مطلقة بعد رجاء.

على رابية الطابيات في غرفتها الحالمة الوديعة أدارت وجهها نحو النافـذة وراحت عيناها السابحتان بالدموع تجولان في السماء الـصافية الاّ مـن بعـض غييمات، بهلالها الفضي ونجومها المتلألئة بنظرة معاتبة. وتطوفان فـي الأفـق البعيد، والبحر الساجي والبساتين، ثم تستقران على الهضبة، وقد اتكأ على صدرها المقهى وعرائش العائلات.. ويبلغ أسماعها ضحكات المرتـادين يلعبـون النـرد ممتزجة بأغنية أم كلثوم في رباعيات الخيام!..

مضى شهران.. شهران يا سلمى منذ سمعتها لآخر مرة!..

ونشنشت الأحاسيس الباكية في صدرها، وهـي تـصغي وتـذري الـدموع السخينة..

أكان كثيرا على الحياة أن تدعك تعيشين يا رجاء؟

وجففت دموعها وهي تردد لنفسها:

- مثلك لا تلتهف لتبدد آلامها دموعا.. بل لتحيله لهبا في دمائها.. فتستحيل الدماء الملتهبة الى... روح...

وزفرت وهي تلقي بناظريها على الصورة المثبتة على جـدار مخـدعها التي كبرتها لرجاء:

- نعم مثلك لا تلتهف لتبدد آلامها دموعا، بل لتحيلهـا لهبـا مـشعلا فـي دمائها.. فتستحيل الدماء الملتهبة الى.. روح..

وأجابتها من الصورة ابتسامة وضيئة:

- ألا توافقيني يارجاء؟

كزنبقة بين الأزاهيراعتمدت بركبة على صدر الأرض الساهرة الحنـون وكأنها تسارها بقريب التداني، وقد التمع ثغرها الأفر بابتـسامة لا تنطفـئ، وتألقت عيناها الدعجاوان بوميض لا يخبو:

- ألا توافقيني يارجاء؟

كل شيء هادئ الاّ صدرها.. صـخّاب كـالأمواج العاتيـة، والريـاح الضارية.. كيف يحتمل تلك الأعاصير ولا ينفجر؟..

وانفجر.. لا دمعاً.. بل دماً.. وتهاوت سلمى ونجيعها يصبغ وسـادتها.. وأم كلثوم لا تزال تغني.. رباعيات الخيام!..

عانت بضعة أيام معاناة مشرف.. ونـصحها الطبيـب أن تـذهب إلـى مصيف. ووقف خالد يوماً قرب سريرها، وكان بادي الانفعال:

- "سلمى.!"

والتفتت إليه سلمى بدون أن تنبس بكلمة فتلعثم:

- " اواه لا أجرؤ.. أخشى أن .."
- " تكلم يا خالد"
- " ألن تخذليني؟".
- " لا.. لن أخذلك"..
- " لقد كانت رجاء صديقتك الوحيدة.. لن أطمع أن تكون لي مثل منزلتهـا في نفسك ولكنني سأحاول جهدي أن أفهمك.. هل تقبليني صديقاً لك؟"

وأشاحت سلمى بوجهها.. لا.. أنها لا تستطيع.. ولكنها ذكـرت الحلـم وتنهدت.. واستدارت.. ومدت يدها بصمت.. وصافحها خالـد بحـرارة والدموع تجول في مآقيه.

* * *

هاهي ذي القطة غبراء في الصيف قد نثرت ثماني جراء.. لقد تألمت كثيراً فـي غيهب الليلة الماضية ومواؤها لم يدع لأحد سبيلاً لهجوع.. كانت تبدو وعكة نهكة متوترة الأعصاب لحفظ كيان الحيوانات الجديدة.. دافعت عنهم مستأسدة إذ هـاجم

عرينها القطط الذكور ليجعلوا من فلذات أكبادها وليمة شهية.. ورغم ذلك فقد نفق ثلاثة.. وحملتهم في صباح اليوم التالي واحداً إثر الآخر لتواريهم التراب..

أما سلمى فلذّ لها أن تراقب الخمسة الباقين في نموهم.. مشهد من مشاهد الحياة الجدير بالتأمل.. صفحة نضرة لا يبليها تكرار الحقب والابتذال..

غبراء وقد غلبها الوسن وعلت جرجرتها.. مستلقية على الأرض الدمثة البليلـة وقد متع النهار وهبت عليها ريح رخاء.. وجراؤها يحتربون على ضروعها يـرد قويهم ضعيفهم عن ورده.. فترى أحدهم يمتك الضرع مختلج الشفتين مهتاج اليدين يتشبث به ثرا ويتركه أجد.. ثم يهاجم موضع أخيه الواهن الهزيل يدعه وينخـزه ويستدر ما بقي.. وتبلغ الرحمة مبلغها بأحمد وسعاد فيحاولان التدخل وانـصاف المحروم. وتنبه غبراء من غفوتها وتحدق بجمود ولا مبالاة.. وتقول سلمى وهي تشيح عن شعر "إقبال" الذي أهداه إليها أديب..

- " بالله دعونا نرى.. لا تعرقلوا سير الطبيعة فلن نكـون أحكـم منهـا.."

وينفق أحدهم طوى وهزالا وينفق غيره، فتحملهم واحداً بعد الآخر بـين أسنانها لتواريهم التراب.. وماهي بوالدة سليب.. لا مبالاة مدهشة..

وأجهشت سعاد بالبكاء وهي تنقل الجرو المرشّح الذي اختارته ليكون لها، من يد ليد وقد تأكد لديها أنه فارق الحياة.. وانفجرت في وجه أختها سلمى:

" أنت السبب.. لو كنت تركتني أسقيه الحليب بالقطارة لعاش.. لعاش.."

وذهبت غاضبة إلى العين، وغسلته ولفته في قطعة قماش بيضاء، ووضـعته في علبة كرتون ثم حضرت وهشام حفرة قرب المنزل ودفناه فيها..

ويعصر قلب سلمى الأسى.. لقد بقي لغبراء اثنان قرة للعين وبهجة للنفس.. فلا والله.. ليست هي قطة تراها وليسوا جراء، وإنما الحياة نفسها وأبناؤهـا. القصة الأزلية للمصير الإنساني!

القوة والرحمة.. معسكران يتصارعان مذ كان الوجود.. ويقـف الفكـر حائراً.. ما غرض الحياة؟

أنخبة قوية أم أوساط سواء؟ ولكن من يجيب سلمى؟ ليس من فرد يقـوى على مثل هذه الإجابة.. إنها مشكلة الحياة الكبرى...

هل كان من الخير أن تلهم "غبراء" الإنصاف وهي تثور حـصور العطـاء، فتخاف خمساً على حال هزيلة، أم كانت وهي ابنة الحياة الملهمة أحكم فـي تصرفها من الإنسان نفسه فيما يتبجح من عقل وإدراك؟

إنها لأسئلة رهيبة تجذب إلى سؤال أسبق وأرهب.. أبوسع الحياة أن تكفي أبناءها؟

فإن كانت الحياة ثرة العطاء ما تدع ذا مسغبة أو صدى، فلقد ظلم الإنسان نفسه، وإن كانت كغبراء تثورا شحيحة، فلقد ظلمت الإنسان والظلم شريعتها وذوو الظلم أبناؤها..

القوة فطرة الطبيعة.. إن غبراء لا تشعر بوخز الضمير.. ها هي تعود وفي فمها فريسة، ومواؤها كركرة وحشية.. إنها تهتـف بجرويهـا ليـشاركاها وليمتها!..

والرحمة انتصار الإنسان على الطبيعة.. لقـد عـادت سـعاد وعيناهـا مضرجتان من البكاء، وفيهما نظرة تأنيب لكأنما تقول لأختها سلمى.. أنـت قاسية لقد تغيرت كثيراً في الأيام الأخيرة!..

لو تدري سعاد بتمزق أختها الـداخلي، ولكنهـا أصـغر مـن أن تبثهـا أحزانها..

حقاً لقد تغيرت سلمى.. إنها تشعر بيأس من الخير والعدل والسلام.. هل قضي عليها هي الأخرى أن تكون كتلك الجراء التي حيل بينها وبـين نبـع الحياة؟ هل قضي على اللاجئين جميعاً هذا المصير؟ ليس في طبعها أن تدع وتنخز كي تعيش وتنقذ نفسها.. لقد أفلت من فمها الثـدي الـذي يرضـعها القوة.. اقتلعت من أرضها فليس أمامها سوى الفناء!..

لقد أصبحت اليوم تصارع من أجل أن تحيا فقط، وليس من أجل أن تحيا حياة لائقة بالإنسان.. ليتها تزوجت، ليتها لم ترفض الفرصة الوحيدة التـي أتيحت لإنقاذها.. من يدري بها؟ ومن يدري بلوعة قلبها؟ ومن يدري بالنـار المتأججة في صدرها على الظلم الذي حاق بها وبمواطنيها؟

لقد خسرت أختها الحبيبة، وخسرت أمنها واطمئنانها وفرح شبابها.. وها هي الآن تخسر نفسها..

وفي يوم جاء عبد الرحمن كعادته في أمسيات أيام الخميس ليقضي عطلة الأسبوع في المصيف.. وكانت سلمى جالسة على كرسيها المريح خارج المنزل المطلّ على الطريق تقرأ.. ورأته يبتسم كمن يخبئ لها مفاجأة، وحاول تحزيرها ففشلت، ولم يخطر ببالها أبدا أنها رسالة من الدكتور.. فضتها بدهشة وترقب:

"سلمى.. لست أدري لم أكتب اليك كأنما أنا مذنب يبرر نفسه.. لقد حاسبت نفسي حسابا عسيرا، وكان الهمّ يثقل علي.. أترانـي أخطأت في علاج رجاء؟.. وكنت أرى في عينيك نظرة تتهمني بالتقصير.. انني أجيبك اليوم يا سلمى وأنا مرتاح الضمير بأنني فعلت لها كلّ ما يستطيع الطب أن يفعله في حالتها.. أقول هذا عن ثقة كبيرة بعد أن رأيت طرق العلاج في أفضل مستشفيات العالم!..

يعلم الله أنني تعذبت لفقد رجاء بما يعادل عذابك.. لقد كرهت مهنة الطب التي توثق عاطفتي الى مرضاي، وتجعلني أشعر بعجزي عن إنقاذهم.. ومع ذلك فانني أشعر اليوم بأنني تخلّصت من ذلك الشعور المرهق الذي كان يثقل ضميري، بأنه من الجائز أن أكون قد أخطأت في علاج رجاء، أو أخطأت في تقدير وضعها فجعلت الأمل يكبر في قلبك أنها على وشك الشفاء.. لقد كنا يا سلمى أمام عدو محتال ماكر غلبنا في أعز انسانة لدينا.. وهذا الأمر بالذات يجعل حافزي من القوة بحيث أتحدى هذا العدو الجبار بمزيد من البحث والمعرفة!..

ليس من طبيب ملزم أن يبرر نفسه في مثل تلك الظروف لأنه ما من طبيب يملك قدرة الحياة والموت.. ولكن أمرك يهمني، وأشعر أن علي أن أطمئن بأنك أنت بالذات لاتحمليني في ضميرك أي تقصير أو هفوة أنا بريء منها، وأن رفضك طلبي لم يكن لهذا السبب!."

ولما سألها عبد الرحمن عما تتضمنه الرسالة أعطته اياها ليقرأها وهـي تحدق ببقع النور التي يتركها على الأرض خيال شجرة توت.. وقـال عبـد الرحمن بعد أن قرأ الرسالة:

- لم تكوني عاقلة حين رفضت طلبه.. ومع ذلك فالفرصة لم تضع لتصلحي خطأك.. وأجابت سلمى وهي لا تزال تحدق بالنور:
- كنت دائما واثقة أنه فعل جهده، ولكنه انسان حساس جـدا.. ان العـلاج الوحيد الحاسم هو ليس في المستشفى، بل في المجتمع.. هذا ما أصبحت واثقة منه.. انني أحترم مشاعره، ولكنني لا أريد أن أجعل الزواج خاتمة لأحزاني، مهنة أجد فيها أسباب معيشتي، وأشعر أن آلامي قد انتهت.. ان ألمي أكبر وأعمق جذورا، وهناك وسيلتان للخلاص منه: اما أن أرتفـع بأدبي ليكون على مستوى الأحداث التي نعيشها، أو أن أكون أقوى منه.. والأول تتحكّم به الظروف، والثاني ارادتي..

لقد اخترت الطريق الصعب، طريق تغيير الظروف، لأن مـن الحقـارة لإنسانية الإنسان أن يعيش هذا العصر الذي تنتهك فيـه حقوقـه وكرامتـه ويرضى بها.. وسأبحث عن مشاعري ذاتها في الآخرين الذين يحسون بهـا كما أحس.. قطرة تضاف الى سواها لتشكل المحيط الإنساني، القادر علـى تغيير الظروف السيئة.. سأكون بذلك أقوى من اللوعة في قلبي لا بالتمـاس العزاء، بل برفض الحياة الهزيلة.. وسأبدأ بجسدي فأعامله بـصرامة فـان صمد فخير، وان هوى فخير من موت بطيئ، موت عاجل..

- ألن تردي على رسالة الطبيب؟
- بماذا أرد وحياتي أصبحت مهددة؟ لا أفعل الاّ أن أكون واثقة من شفائي..

وأغرت خالد في اليوم التالي أن يصحبها لتسلّق جبل "لالا" فتردد خـوف أن يناله اللوم لو أصابتها نكسة.. فقالت له:

- ما دمت استطعت أنت تسلّقه.. فلا بد أن أتسلقه لأعتبـر نفـسي شـافية تماما!

فرضي أخيرا اذ رآها عازبة الرأي.. وانفلتا قبل أن يفيـق أفـراد العائلـة ويتوضح النهار..

الريح البرود النقية تحييها وتطاير شعرها، ثم تهدأ ولا تلبـث أن تـستحفز، وتدفع القادمين بقوة كلما أمعنا في الصعود.. وسلمى تلهث ولكنهـا تـشعر بنشوة غريبة.. ستكون قوية لا لتعيش فقط لنفسها بل لهدف أسـمى منهـا.. ويقول خالد بقلق:

- لنعد يا سلمى! لقد تمادينا في الصعود.. وتبتسم سلمى:
- لنصعد أكثر.. لم أتعب بعد.. أريد أن أسمع ما تهمس به الريح فـي أذن الجبل..
- كما تشائين.. وأنت المسؤولة ان جد لك أمر!..
- لن يحدث لي شيء.. لست مصابة بوهن القلب، وجرحي التأم.. أريد أن أنتصر على كل الظروف السيئة التي تحيطني، لأناضل في سبيل مجتمع لا تموت فيه زهرة كرجاء قبل أوانها.. لقد اخترت يـا خالـد الطريـق الصاعد الطويل.. اخترت الكلمة الحرة التي تكلّف غاليا!..

بلغت سلمى القمة بالرغم من توسلات خالد لها بالعودة، وبـالرغم مـن إحساسها بالوهن، فمن يصدق؟..

الكون يرقص اهتزازا مع زفزفة الريح.. ويا لـشفاه الـشفق الحمـراء! الأخيلة البراقة كأحلام الحبّ تلمس جفنيها، وتسحر بجمالها عينيها، وتسكب الغبطة في فؤادها فترى للأشجار روعة وللـصخور روعـة، وللمـصيف المتدحرج على سفح الجبل، الجاثم كطير يدفّ روعة تملأ كيانها.. فما بهـا من بث، ولا بها من وصب في تلك اللحظة الحافلة.. انهـا تـشعر بنفـسها قوية.. زادتها المصائب قوة نفسية وحبا للحياة وايمانا بالإنتصار..

وتمنت لو كانت رجاء قربها تخبرها عن النور الذي عاد ليتدفّق شلاّلا قويـا ناصعا في أعماقها.. وتمنت لو تخبرها عن الكتب الي قرأتها وتقرأها هـذه الأيام، وكيف عرفت أخيرا أعداء الإنسان، وعرفـت مـن يـسممون نهـر الحياة.. وكيف زالت عن عينيها كل غشاوات الأفكار الطوباوية..

وتمتمت كأنما تحادث نفسها:

- لقد دفعنا ضريبة من العذاب باهظة يا خالد!.. لا نستحقها..
- هذا قدرنا!
- لا تحدثني كما حدثني يوما أخوك أديب! قال لي وهو يعزيني بفقد رجاء، بأن السماء ربما رحمتها من خطيئة ربما كان مقدرا لها أن تقـع فيهـا، وأوثق كلامه بقصة الخضر.. أنا لاأعزى بمثل هـذا الإيمـان الغيبـي، وترفضه قناعتي.. ليس هناك من قدر سوى ما يصنعه الإنسان بنفـسه، وما تصنعه التكتلات البشرية ببعضها.. ان نظامنـا مـريض لا يكفـل المجتمع فيه الفرد، ولا تكفل المجتمعات فيه السلام للشعوب.. فلا ذنـب أبدا للقدر.. القدر ليس شيئا سوى نقص معرفتنا الإجتماعية نملؤها بقـوة غيبية.. انني أسترد ايماني بقوى الخير في العالم، وأرغـب أن أكـون جزءا منها.. وابتسم خالد بارتياب:
- ليس في العالم من قوة خير.. الحق للأقوى.. ونحن كنا وقودا لـصراع القوى.. ولهذا ضاع حقنا، وانتصر باطل أعدائنا..
- علينا واجب تخلينا عنه، واجب الكفاح.. أردنا الطريق السهل اللين، أردنا المساومة مع ألد أعدائنا لحلّ قضيتنا.. كيف يجوع يا خالد الناس الـذين تجري في باطن أراضيهم أنهار الذهب؟ كيف يجوعون ويموتـون كمـا نجوع ونموت؟ مائة مليون عربي كيف يقهرون؟ كيف يشرد منهم شعب ويفقد هويته؟ ولماذا يحل به الفناء رويدا رويدا في مخيمـات اللاجئـين دون أن يروع مصيره الآمنين وما هم بآمنين؟ هل فقد الإنسان العربـي انتماءه لأمته؟ لماذا نهدر طاقاتنا؟ لماذا نفقد الإيمان بنفوسنا؟ قدر نحن لو يتحرر تفكيرنا، قدر لو عرفنا هدفنا، قدر لا يمكن الاّ أن يرد الحقّ حقـا والباطل باطلا!...

وحين عادت سلمى القهقرى الى سفح الجبل، أحست أنها قد غادرت وادي الظلال الى الأبد، وأنها تمتلك القوة لتحقق جميع مشروعاتها المقبلة!

* * *